من أقاصيص الأولين

اختيار وتقديم
الدكتور محمد أحمد خلف الله

- ١ -

حدث محمد بن الحارث بن يسخنر قال :

كانت لى نوبة فى خدمة الواثق فى كل جمعه ، اذا حضرت ركبت الى الدار ، فان نشط الى الشرب أقمت عنده ، وان لم ينشط انصرفت .

وكان رسمنا ألا يحضر أحد منـــا الا فى نوبته . فانى لفى منزلى فى غير يوم نوبتى اذا رسل الخليفة قد هجموا على وقالوا لى :

احضر .

فقلت : ألخير ؟

قالوا : خير .

فقلت : ان هذا يوم لم يحضرنى فيه أمير المؤمنين قط ، ولعلكم غلطتم .

فقالوا : الله المستعان ، لاتطل وبادر ، فقد أمرنا ألا ندعك تستقر على الأرض .

فداخلنى فزع شديد ، وخفت أن يكون ساع قد سعى بى ، أو بلية قد حدثت فى رأى الخليفة على ، فتقدمت بما أردت وركبت حتى وافيت الدار ، فذهبت لأدخل على رسمى من حيث كنت أدخـل ، فمنعت ، وأخذ بيدى الخـــدم فأدخلونى وعدلوا بى الى ممرات لا أعرفها ، فزاد ذلك فى جزعى وغمى . ثم لم يزل الخدم يسلمونتى من خدم الى خدم حتى أفضيت الى دار مفروشة الصحن ، ملبسة الحيطان بالوشى المنسوج بالذهب، ثم أفضيت الى رواق أرضه وحيطانه ملبسة بمثل ذلك ، واذا الواثق فى صـــدره على سرير مرصع بالجوهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب ، والى جانبه فريده جاريته ، عليها مثل ثيابه وفى حجرها عود . فلما رآنى قال :

جودت ــ أسرعت ــ والله يا محمد الينا .

فقبلت الأرض ثم قلت :

يا أمير المؤمنين خيرا ·

قال : خيرا ، أما ترانا ، طلبت والله ثالثا يؤنسنا فلم أر أحق بذلك منك ، فبحياتى بادر فكل شيئا وبادر الينا ·

فقلت : قد والله ياسيدى أكلت وشربت أيضا ·

قال : فاجلس ·

فجلست ·

وقال : هاتو لمحمد رطلا فى قدح ، فأحضرت ذلك ، واندفعت فريده تغنى ·

أهابك اجـــلالا وما بك قـدرة
على ولـــكن ملء عينى حبيبهـــا
وما هجرتك النفس أنك عندها
قليل ولـكن قل منك نصيبها

فجاءت والله بالسحر ، وجعل الواثق يجاذبها ، وفى خلال ذلك تغنى الصوت بعد الصوت ، وأغنى أنا فى خلال غنائها ، فمر لنا أحسن ما مر لأحد · فأنا لكذلك اذ رفع رجله فضرب بها صدر فريده ضربة تدحرجت منها من أعلى السرير الى الأرض ، وتفتت عودها ، ومرت تعدو وتصيح · وبقيت أنا كالمنزوع الروح ، ولم أشك فى أن عينه وقعت على وقد نظرت اليها ونظرت الى ·

أطرق ساعة الى الأرض متحيرا وأطرقت أتوقع ضرب العنـــق · فانى لكذلك اذ قال لى :

يا محمد ·

فوثبت ·

فقال : ويحك أرأيت أغرب مما تهيأ علينا ·

فقلت : يا سيدى ، الساعة والله تخرج روحى ، فعلى من أصابنا بالعين لعنة الله ؟ فما كان السبب ؟ الذنب ؟

قال : لا والله ؟ ولكن فكرت أن جعفرا يعقد هذا المقعد ويقعد معها كما هى قاعدة معى ، فلم أطق الصبر وخامرنى ما أخرجنى الى ما رأيت ·

فسرى عنى وقلت :

بل يقتل الله جعفرا ، ويحيا أمير المؤمنين أبدا · وقبلت الأرض وقلت :

يا سيدى الله الله ، ارحمها ، ومر بردها ·

فقال لبعض الخدم الوقوف : من يجىء بها ؟

فلم يكن بأسرع من أن خرجت وفى يدها عودها وعليها غير الثياب التى كانت

عليها . فلما رآها جذبها وعانقها . فبكت وجعل هو يبكى . واندفعت أنا فى البكاء .

فقالت : ما ذنبى يا مولاى وياسيدى ؟ وبأى شىء استوجبت هذا ؟

فأعاد عليها ما قاله لى وهو يبكى وهى تبكى .

فقالت : سألتك بالله يا أمير المؤمنين الا ضربت عنقى الساعة وأرحتنى من الفكر فى هذا ، وأرحت قلبك من الهم بى ، وجعلت تبكى ويبكى ، ثم مسحا أعينهما ورجعت الى مكانها .

وأومأ الى خدم وقوف بشىء لا أعرفه ، فمضوا وأحضروا أكياسا فيها عين وورق ، ورزما فيها ثياب كثيرة ، وجاء خادم بدرج ففتحه وأخرج منه عقدا مارأيت قط مثل جوهر كان فيه . فالبسها اياه ، وأحضرت بدرة فيها عشرة آلاف درهم فجعلت بين يدى وخمسة تخوت فيها ثياب ، وعدنا الى أمرنا والى أحسن مما كنا . فلم نزل كذلك الى الليل ، ثم تفرقنا .

وضرب الدهر ضربه وتقلد المتوكل . فوالله انى لفى منزلى بعد يوم نوبتى اذ هجم على رسل الخليفة ، فما أمهلونى حتى ركبت وصرت الى الدار ، فادخلت والله الحجرة بعينها ، واذا المتوكل فى الموضع الذى كان فيه الواثق على السرير بعينه والى جانبه فريده . فلما رآنى قال :

ويحك ؟ أما ترى ما أنا فيه من هذه ؟ أنا منذ غدوه أطالبها بأن تغنينى فتأبى ذلك .

فقلت لها : يا سبحان الله ؟ أتخالفين سيدك وسيدنا وسيد البشر ؟ بحياته غنى ؟

فعرفت والله ثم اندفعت تغنى .

فلا تبعـــد فكل فتى سـيأتى عليه الموت يطرق أو يغادى

ثم ضربت بالعود الأرض ، ثم رمت بنفسها عن السرير ومرت تعدو وهى تصيح : واسيداه .

فقال لى . ويحك ؟ ما هذا ؟ .

فقلت : لا أدرى والله يا سيدى .

فقال : فما ترى ؟

فقلت : أرى أن أنصرف أنا وتحضر هذه ومعها غيرها ، فان الأمر يؤول الى مايريد أمير المؤمنين .

قال : فانصرف فى حفظ الله ؟

فانصرفت ولم أدر ما كانت القصة .

حدث أبو سفيان بن حرب قال :

كنا قوما تجارا ، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا • فلما كانت الهدنة ـ هدنة الحديبية ـ بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرجت فى نفر من قريش الى الشام ، وكان وجه متجرنا منه غزة • فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من الفرس ، فأخرجهم وانتزع منهم صليبه الأعظم وكانوا قد استلبوه اياه • فلما بلغه ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ منهم ، وكانت حمص منزله ، خرج منها يمشى على قدميه شكرا لله حين رد عليه مارد ليصلى فى بيت المقدس ، تبسط له البسط ، وتلقى عليها الرياحين •

فلما انتهى الى ايلياء فقضى فيها صلاته وكان معه بطارقته وأشراف الروم ،أصبح ذات غدوة مهموما يقلب طرفه فى السماء •

فقال له بطارقته : والله لكأنك أصبحت الغداة مهموما •

فقال : أجل ؟ رأيت البارحة أن ملك الختان ظاهر •

فقالوا : أيها الملك ، ما نعلم أمة تختتن الا اليهود ، وهم فى سلطانك وتحت يدك، فابعث الى كل من لك عليه سلطان فى بلادك فمره فليضرب أعناق من تحت يدك من يهود واسترح من هذا الهم •

فوالله انهم لفى ذلك من رأيهم يدبرونه اذ أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده ـ وكانت الملوك تتهادى الأخبار بينهم ـ فقال :

أيها الملك ، ان هذا رجل من العرب من أهل الشاء والابل يحدث عن أمر حدث فاسأله •

فلما انتهى به رسول صاحب بصرى الى هرقل ، قال هرقل لمن جاء به :

سله عن هذا الحديث الذى كان ببلده ، فسأله ، فقال :

خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبى ، وقد اتبعه ناس فصدقوه وخالفه آخرون ، وقد كانت بينهم ملاحم فى مواطن كثيرة ، وتركتهم على ذلك •

فلما أخبره الخبر قال : جردوه فاذا هو مختون ، فقال :

هذا والله النبى الذى رأيت لا ما تقولون ، أعطوه ثيابه وينطلق •

ثم دعا صاحب شرطته فقال له :

اقلب الشام ظهرا لبطن حتى تأتينى برجل من قوم هذا الرجل •

قال أبو سفيان : فانا لبغزة اذ هجم علينا صاحب شرطته فقال :

أنتم قوم من الحجاز ؟

قلنا : نعم ٠

قال : انطلقوا الى الملك ٠

فانطلقوا بنا ٠ فلما انتهينا اليه قال :

أنتم من رهط هذا الرجل الذى بالحجاز ؟

قلنا : نعم ٠

قال : فأيكم أمس به رحما ٠

قال : قلت أنا ـ قال أبو سفيان : وأيم الله ما رأيت رجلا أرى أنه أنكر من ذلك الأغلف ـ يعنى هرقل ـ

ثم قال : أدنه ٠ فأقعدنى بين يديه وأقعد أصحابى خلفى ، وقال :

انى سأسأله ، فان كذب فردوا عليه ٠

قال أبو سفيان : فوالله لقد علمت أن لو كذبت ما ردوا على ، ولكنى كنت امرأ سيدا أتبرم عن الكذب ، وعرفت أن أيسر ما فى ذلك ان أنا كذبته أن يحفظوه على ثم يحدثوا به عنى ، فلم أكذبه ٠

قال : أخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم يدعى ما يدعى ٠

قال أبو سفيان : فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أموره ، وأقول له :

أيها الملك ، ما يهمك من شأنه ؟ ان أمره دون ما بلغك ، فجعل لا يلتفت الى ذلك منى ٠

ثم قال : أنبئنى فيما أسألك عنه من شأنه ٠

قال أبو سفيان : قلت سل عما بدا لك ٠

قال : كيف نسبه فيكم ؟

قلت : محض ، هو أوسطنا نسبا ٠

قال : أخبرنى هل كان أحد فى أهل بيته يقول ما يقول فهو يتشبه به ؟

قال أبو سفيان : قلت لا ٠

قال : هل كان له فيكم ملك فسلبتموه اياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟

قال أبو سفيان : قلت لا ٠

قال : أخبرنى عن أتباعه منكم من هم ؟

قال أبو سفيان : قلت الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء ، فأما ذوو الأسنان من الأشراف فلم يتبعه منهم أحد ٠

قال : فأخبرنى عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ؟

قال أبو سفيان : قلت : قلما يتبعه أحد فيفارقه ٠

قال : فاخبرنى كيف الحرب بينكم وبينه ؟

قال أبو سفيان : قلت : سجال يدال علينا وندال عليه ٠

قال : فأخبرنى هل يغدر ؟

فلم أجد شيئا أغتمز فيه غيرها ٠ فقلت : لا ، ونحن منه فى هدنة ولا نأمن غدره ٠

قال أبو سفيان : فوالله ما التفت اليها منى ٠ ثم كرر على الحديث فقال :

سألتك عن نسبه فيكم ، فزعمت أنه محض من أوسطكم نسبا ، فكذلك يأخذ الله النبى لا يأخذه الا من أوسط قومه نسبا ٠ وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل قوله فهو يتشبه به ، فزعمت أن لا ٠ وسألتك هل كان له ملك فيكم فسلبتموه اياه فجاء بهذا الحديث يطلب ملكه ، فزعمت أن لا ٠ وسألتك عن أتباعه ، فزعمت أنهم الضعفاء والأحداث والمساكين والنساء ، وكذلك أتباع الأنبياء فى كل زمان ٠ وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ، فزعمت أنه لا يتبعه أحد فيفارقه ، فكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلب رجل فتخرج منه ٠ وسألتك عن الحرب بينكم وبينه فزعمت أنها سجال تدالون عليه ويدال عليكم ، وكذلك حرب الأنبياء ولهم تكون العاقبة ٠ وسألتك هل يغدر ، فزعمت أن لا ٠ فلئن كنت صدقتنى عنه فليغلبن على ما تحت قدمى هاتين ، ولوددت أنى عنده فأغسل قدميه ؟ انطلق لشأنك٠

قال أبو سفيان : فقمت من عنده وأنا أضرب باحدى يدى على الأخرى وأقول : يا لعباد الله ؟ أصبحت ملوك بنى الأصفر يهابونه فى ملكهم وسلطانهم ٠

- ٣ -

حدث أبو محمد بن النشار قال :

كان أبى صديقا للحسين بن الضحاك وكان يعاشره ، فحملنى معه يوما اليه ، وجعل أبى يحادثه الى أن قال له :

يا أبا على ، قد تأخرت أرزاقك وانقطعت موادك ونفقتك كثيرة ، كيف يمشى أمرك ؟

فقال له : بلى والله يا أخى ، ما قوام أمرى الا ببقايا هبات الأمين محمد بن زبيدة وذخائره وهبات جارية له ـ لم يسمها ـ أغنتنى للأبد لشىء ظريف جرى على غير تعمد ، وذلك أن الأمين دعانى يوما فقال لى :

يا حسين ، ان جليس الرجل عشيره وثقته وموضع سره وأمنه ، وان جاريتى فلانة أحسن الناس وجها وغناء ، وهى منى بمحل نفسى ، وقد كدرت على صفوها ونغصت على النعمة فيها بعجبها بنفسها وتجنيها على وادلالها بما تعلم من حبى اياها ، وانى محضرها ومحضر صاحبة لها ليست منها فى شىء لتغنى معها،فاذا غنت وأومأت لك اليها ـ على أن أمرها أبين من أن يخفى عليك ـ فلا تستحسن الغناء ولا تشرب عليه ،

واذا غنت الأخرى فاشرب واطرب واستحسن واشقق ثيابك ، وعلى مكان كل ثوب مائة ثوب ·

فقلت : السمع والطاعة ·

فجلس فى حجرة الخلوة وأحضرنى وسقانى وخلع على ، وغنت المحسنة وقد أخذ الشراب منى ، فما تمالكت أن استحسنت وطربت وشربت ، فأومأ الى وقطب فى وجهى · ثم غنت الأخرى فجعلت أتكلف ما أقوله وأفعله · ثم غنت المحسنة ثانية فأتت بما لم أسمع مثله قط حسنا ، فما ملكت نفسى أن صحت وشربت وطربت ، وهو ينظر الى وبعض شفتيه غيظا ، وقد زال عقلى فما أفكر فيه ، حتى فعلت ذلك مرارا ، وكلما ازداد شربى ذهب عقلى وزدت مما يكره ، فغضب منى فأمضنى وأمر بجر رجلى من بين يديه وصرفى ، فجررت وصرفت ، فأمر أن أحجب ·

وجاءنى الناس يتوجعون لى ويسألون عن قصتى فأقول لهم :

حمل على النبيذ فأساء أدبى ، فقومنى أمير المؤمنين بصرفى وعاقبنى بمنعى من الوصول اليه ·

مضى لما أنا فيه شهر ، ثم جاءتنى البشارة أنه قد رضى عنى ، وأمر باحضارى، فحضرت وأنا خائف · فلما وصلت أعطانى الأمين يده فقبلتها ، وضحك الى وقام وقال اتبعنى ·

دخل الى تلك الحجرة بعينها ولم يحضر غيرى · وغنت المحسنة التى نالنى من أجلها ما نالنى فسكت ·

فقال لى : قل ماشئت ولا تخف · فشربت واستحسنت ·

ثم قال لى : يا حسين ، لقد خار الله لك بخلافى وجرى القدر بما تحب فيه · ان هذه الجارية عادت الى الحال التى أريد منها ورضيت كل أفعالها ، فأذكرتنى بك ، وسألتنى الرضا عنك والاختصاص لك · وقد فعلت ووصلتك بعشرة آلاف دينار ، ووصلتك هى بدون ذلك · والله لو كنت فعلت ما قلت لك حتى تعود الى هذه الحال ثم تحقد ذلك عليك فتسألنى ألا تصل الى لأجبتها ·

فدعوت له ، وشكرته ، وحمدت الله على توفيقه ، وزدت فى الاستحسان والسرور الى أن سكرت ، وانصرفت ، وقد حمل معى المال ·

وما كان يمضى أسبوع الا وصلاتها وألطافها تصل الى من الجوهر والثياب والمال بغير علم الأمين ، وما جالسته مجلسا بعد ذلك الا سألته أن يصلنى · فكل شىء أنفقته بعده الى هذه الغاية فمن فضل مالها وما ذخرت من صلاتها ·

قال ابن النشار : فقال له أبى : ما سمعت بأحسن من هذا الحديث ، ولا أعجب مما وفقه الله لك فيه ·